حياتنا معين لا ينضب

حياتنا: تلك الفترة الزمنيّة التي تتفاوت مدّتها بين إنسان وآخر ونقضيها فوق كوكبنا الأرضي هذا هي أغلى ما عندنا، وهي فرصتنا الوحيدة التي تتاح لنا لننعم بسعادة الوجود أو لنشقى به ولو على درجات وبنسب متفاوتة. والإنسان هو محور الوجود والعامل الفعّال فيه. والحياة هي التي تنعكس عليها رسالته التي خلق لها، وهي مهما اختلفت صورها عبر الأماكن والأزمان نتيجة عمله وإنتاجه ونشاطه في هذا الكون.

وهناك حقيقتان كثيرا ما غفل عنهما الغافلون؛ الحقيقة الأولى: تتعلّق بقيمة الإنسان في هذا الوجود والرسالة العظيمة التي يحملها وقدراته الجبارة على تسخير الطبيعة لفائدته وعلى الإبداع والخلق والإنشاء بما قد لا يطاوله خيال؛ والحقيقة الثانية: تتعلق بقيمة الحياة البشرية وثرائها وغنائها بأوجه النشاطات والأعمال والمشاريع والإنجازات والتي لا تكاد تقع تحت حصر، ممّا يجعل من هذه الحياة موطنا ثريّا يكاد لا ينضب معينه ولا تنعدم خيراته.

وبالنسبة للحقيقة الأولى قلّ من الناس من وعاها وعمل بها فنظر إلى نفسه وسعى في استكشاف قواها واستغلال ما أودعه الله فيها من قدرات على الخلق والإبداع وتجاوز ما قد يبدو لأول وهلة من قبل المستحيل تحقيقه، فنفض عن نفسه مركّبات النقص والضعف والتخاذل وانطلق مؤمنا بنفسه وبما خلقه الله فيه ممّا يجعله سيّدا في هذا العالم، ويمكّنه من تغيير مجرى التاريخ البشري ومن فرض الوجود الإنساني في آفاق الكون. ونرى ذلك من خلال الإنتاج الهزيل والمردود الضعيف الذي يقدّمه كثير من الناس في حياتهم واقتصارهم طيلة سنين وجودهم على عملهم اليومي العادي وعلى أوجه أخرى من النشاطات الحياتية العاديّة التي لا تتطلّب بذل جهود تتناسب في واقع الأمر مع ما يكمن في القدرة البشرية من إمكانيات وقوى.

والسبب في ذلك الاستكانة والرضا بالمنتوج الهزيل الذي لا يحصل سوى من بذل الجهد الهيّن البسيط الذي لا يتطلع نحو تحصيل المعالي وإثراء الحياة البشرية. ومردّ هذه الاستكانة عصور الانحطاط والاستعمار والحكم الاستبدادي وما فرضه على الطاقات البشرية من تضييق في مجالات الخلق والإنشاء، وتبعيّة حضارية عطّلت قوى الإنتاج المحلية عن التطور والنموّ. ولكن هذه المخلفات التاريخية التي تركت في كثير من الناس نفسيّة لا تطمح إلى ما فوق الثرى ولا تؤمن بنفسها وتثق بقواها يجب أن تزول بزوال أسبابها، وعلينا أن نزرع في شبابنا الإيمان بأنفسهم وبقدرتهم على إنجاز ما قد يبدو من قبل المستحيل طالما كان المنطلق صلبا والغاية والاتّجاه قويمين.

وبالنسبة للحقيقة الثانية علينا أن نعي أن الحياة ليست كما فهمها كثير من الناس فاقتصروا على اعتبارها عملا يوميا ينجز ولقمة تُتناول لضمان العيش وأمورا دنيوية أخرى لا تؤدي في مجملها سوى لحصر الحياة في إطار ضيّق يجعلها حياة جافة هزيلة بائسة لا تليق بالإنسان الذي حمل الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض. وإنّما الحياة بإمكانها أن تكون ثريّة وبهيجة إلى حدّ بعيد. وبإمكان الإنسان أن يجعل منها موطنا لا ينفك عطاء وخلقا وإبداعا، وذلك بما ينبع من مسارنا فيها من نشاطات نمارسها وأعمال نقوم بها وهوايات نقبل عليها ومشاغل نمضي أوقاتنا فيها كلّها تنبع من استغلال طاقاتنا البشرية التي تجعل من كل صحراء حياتيّة قاحلة جنّة خضراء تنبع بالخيرات والبركات.

فعلينا أن نعمل في هذا الاتجاه مؤمنين أنه مهما بلغت طموحاتنا ففي الحياة مجال لتحقيقها. والحياة تشبه قصرا منيفا يكاد لا يحدّه حدّ، قد حوى من البدائع والمباهج والبركات ما لا يحصيه أحد، ولكن يلفّه ظلام كثيف، وهو ظلام الجهل والتقاعس والتخاذل، ولكن كلما سرنا في دروبه وخضنا غماره مضيئين شموع النور التي تطرد ما يحفّ به من ظلمات تكشّفت لنا بدائعه وعجائبه كأحسن وأكمل ما يكون. يقول ابن قيّم الجوزية في مدارج السالكين: «قيمة المرء على مطلوبه ومتى صحتّ النيّة وعلت الهمّة ارتفع صاحبها... فعلوّ همّة المرء عنوان فلاحه وسفول همّته عنوان حرمانه». فينبغي أن نكون أصحاب همّة عالية نتطلّع إلى الأعلى دائما لأنفسنا ولمجتمعنا ولأمّتنا. ويقول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: « إن لي نفساً توّاقة لم تَتُق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة» (ذكره ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز).

فعلينا أن نضع نصب أعين شبابنا هاتين الحقيقتين المتعلقتين بقيمة الإنسان وإمكانياته وثراء الحياة البشرية حتى يتّسع نطاق نظرته للحياة فيتطلّع إلى إخصابها بأن يجعل منها حياة متنوّعة غزيرة خصبة وذلك بإقدامه على الخلق والإبداع والعمل النبيل، وهو بذلك يحوّل حياته إلى حياة كريمة بهيجة تليق بآدميّته.